رأفت دعسان

إلى أنثى

خواطر
وقصص



رأفت دعسان

إلى أنثى



خواطر
وقصص





إلى أنثى

خواطر وقصص

تأليف

رأفت دعسان

دار الفارابي
الكتاب: إلى أنثى
المؤلف: رأفت دعسان
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: كانون الثاني 2014
ISBN:978-9953-71-990-0

إهداء

إلى أنثى عاشت في وجداني وتقلبت على سرير ذكرياتي
إلى أنثى علمتني معنى الحب نبيذاً أرشفه كل صباح من ثغرها
إلى أنثى وجدت عندها نصفي المفقود وارتاحت لديها ذاتي المثقلة بآهات الاشتياق
إلى أنثى أحببتها وأحببت لأجلها كل أنثى أبوح إليك بهذه الكلمات.
رأفت

الحـــب

كثير هم من كتبوا في الحب، كثير هم من ذاقوا حلاوة العشق، وكثير هم من لمسوا الجنة وعاشوا فيها في دنياهم، كثير كثير وأنا منهم.

الحب سمو الروح، انعتاق القلب من أسر الجسد، ترياق آلام الباحثين عن السعادة.

الحب باعث الإنسانية في حيوانية الإنسان، مفجر ينابيع السعادة في دروب العاشقين، موجد شمس الليل ونجوم النهار.

لا أحسب الإنسان إنساناً بلا حب، فبالحب تكتمل إنسانيته وسموه فوق الكائنات فاستحق خلافة الأرض فهو أساس الأديان.

كنت إنساناً آخر كثير التفكير والبحث عن المفقود في الذات والتأمل الحائر في الأشياء، كنت أستغرب سطحية جمال الزهور وعشق بياض القمر وقلة نوم المبتلين بداء الحب والابتسامة الرقيقة على شفتي الحبيبة عند ذكر الحبيب ولكني قد كنت.....

ولكني حين أحببت، أدركت عمق جمال الزهور وبنيت مملكة للعشق على وجه القمر وكرهت النوم الذي يوقف عقلي عن التفكير في حبيبتي وعشقت الابتسامة التي تغزو شفتيها اللتين تقطران شهداً وجاذبية.

وأنا حين أحببت تخليت عن الأنا لأجلك أنتِ، فأنا أنتِ، وأنا أرى نفسي منصهراً في ذاتِك معلقاً على باب قلبك، نائماً في محراب عينيك متوسداً خديك كطفل نائم في حضن أمه، مستنشقاً أريج أنفاسك، ذاهباً بين خصيلات شعرك المتناثرة على صدري إلى البعيد.....

وأنا حين أحببت عدت طفلاً مدللاً غير آبه لليوم أو للغد أو للأمس، غير مدرك لماهية الوقت والمكان، كل ما أرنو إليه سماع أغنية حبيبي حين تغنيها أنتِ، كل ما أرنو إليه رؤية الشواطىء والأمواج السابحة في عينيكِ.

وأنا حين أحببت أردت أن يقف الزمان، أردت أن يختصر المكان في كرسينا العتيق. أردت... ماذا أردت؟؟ أردتك أنتِ..... أردتك أنتِ.....

إلـــى أنـــثـــى

إلى أنثى عاشت في وجداني وتقلبت على سرير ذكرياتي، إلى أنثى علمتني معنى الحب نبيذاً أرشفه كل صباح من ثغرها، إلى أنثى وجدت عندها نصفي المفقود وارتاحت لديها ذاتي المثقلة بآهات الاشتياق، إلى أنثى أحببتها وأحببت لأجلها كل أنثى أبوح إليك بهذه الكلمات.

يا معشوقتي، يا مليكتي المتوجة على عرش قلبي المسحور بنور محياك، أحبك أقسم إني أحبك بكل الحروف بكل الكلمات بكل اللغات، أحبك بكل الثواني بكل اللحظات بكل الأوقات، أحبك بكل الأماكن بكل الذكريات أحبك.

حبيبتي أنا حبيبك وأنتِ حبيبتي، أنتِ ماضيّ حاضري مستقبلي، أنتِ تاريخي، أنتِ أنسي، أنتِ سكني، أنتِ ملاذي وقبلة هروبي من اللحظة.

حبيبتي ارحمي قلباً أتعبته نبضات حبك المتسارعة، ارحمي عيوناً لم تعد ترى غيرك، ارحمي روحاً تطوف في فلك يغازل خالاً تربع على خدك.

اعذريني أيتها الثواني واللحظات لجهلي بالحساب الذي نسيته يوم جالست حبيبتي هناك في ذاك المكان.

تهمس في أذني أحبك، فلا أصدق، ماذا؟؟ فتهمس مرة أخرى أحبك.

عيب على الرجال البكاء هكذا علمني أبي، فعذراً أبي فأمامها أصير طفلاً يحترف البكاء، لقد قالتها، أجل لقد قالتها أحبك وكأني في جوقة تعزف أعذب الألحان، أحبك ما أجملها من كلمة، أحبك ما أروعها من كلمة، أحبك، وكأني نسيت الكلام وكأن اللغة اختصرت في كلمة واحدة – أحبك....

حبيبتي وأنا أحبك كل ما فيّ يصرخ أحبك، أخال نفسي على قمة جبلٍ عالٍ أنادي في الناس أحبها.... أحبها.... فلتسمع كل الدنيا أحبك....

أحبك يا من اختصرت كل نساء الدنيا فيكِ، أحبك يا من قتلت ذكرياتي عند بابك وبدأت كتابة تاريخي بكلمة أحبك. أحبك يا من رسمت لأجلها الدنيا درباً تخطو فيه كطفل بدأ مشوار الخطوات.

أحبك.... أحبك..... أيتها الأنثى أحبك........

ملتهـبــة

ملتهبة، تتدفق الأنوثة منها، غير عادية، كل جزء من جسدها يصرخ أنا أنثى، كل نبرة من صوتها تسحرني فأتمايل كسفينة في وسط المحيط، إنها أنثى إنها طفلة، كل دلال الدنيا لديها، إنها شرسة، كل وحشية الكائنات تقطر من عينيها، إنها ماكرة، في كل نظرة لها قتيل. إنها ملتهبة، تشتعل بالأنوثة والشراسة والطفولة والمكر.

لا أصدق عيني حين أبصرها، أهذه مخلوق موجود على الأرض؟ أهذه أنثى أم نوع آخر من النساء اختزل الأنوثة في كائن واحد؟ حين أراها أسبح في عينين اشتق البحر منهما الزرقة، ذابلتين رقيقتين تنظران إلى البعيد، رموشها كستائر الليل تنسدل على صفحة البحر، حين أراها أشرب عينيها كأسي خمر فلا عقل يبقى لدي ولا لذة إلا لذتي.

حين أراها ألمس شفتين كمن يلمس الغيم بيديه، شفتين تغرق في نعومتهما وكأنك نائم على سرير من القطن المنفوش.

حين أراها أبتدئ الرؤية، فأنا قبلها كنت أعمى، فمتعة اللسان الكلام ومتعة الأذن الصوت الجميل ومتعة العين الجمال ولا أحسب أني رأيت جمالاً قبلها أفلا أكون أعمى؟!

حين تمشي وكأنها تمشي بلا جاذبية، كلا بل الأرض تغازل قدميها فتداعبهما وتحنو عليهما.

حين تتكلم تحبس الأصوات أصواتها لتسمع الألحان في حروفها.

فيها تجد الجمال الذي تراه في كل أنثى.. فقد جمعت الجمال من كل إناث الدنيا فالتهبت... أجل التهبت فأحرقت قلوباً وقتلت كثيراً؛ فهي القاتل الأعظم على هذه الدنيا.. فالذي يراها إمّا مقتول يتوسّد ذراعيها لحداً؛ وإمّا مجنون يمسك القلم محاولاً رسم صورتها بالحروف مثلي....

عيــون غجريــة

شاءت الأقدار أن تلقي بي أمامها حاملاً تعب السنين ووجع الماضي، شاءت الأقدار أن ألقاها لأجد عند وجنتيها الفردوس المفقود. وقفت أمامها وإذ بي أمام لوحة لا تنطق أمامها إلا بـِ ما هذا؟ ولا تدرك أأنت في عالم المحسوس أم في عالم الخيال.

عيونها غجرية تلمس فيها الحرية والانفلات من الممنوع وكأنها فرس في البرية بلا فارس ولا لجام، عيون تحدق إليك فلا تدري أهي حنون أم حاقدة، سعيدة أم حزينة. نظرة يكاد القلب يسكت إجلالاً لها وانبهاراً بها.

سكنت جوارحي وانتقلت روحي إلى عالم الخيال راكباً سفينة مبحراً في عتمة الليل الذي يتوشح بعينيها.

أنا في اللامكان، في اللازمان، في المجهول، لا أدري إلى أين أذهب ولا أدري أين أنا ولكن آه ما أجمل الحرية! أنا الآن أصرخ بلا صوت تقيدني حدوده أرقص في الفراغ أسبح في اللاوجود، ها قد وصلت السفينة إلى أين – أتظن أني أدري؟ – إني أمشي في غابات تتمايل من الرموش كمخمور لم يذر كأساً معتقة من شر شفتيه. أتعبني المسير في هذه الغابة فعطشت، إني أرى ينبوعاً يتدفق هناك آخر الطريق شربت منه وليتني لم أشرب، ما أصعب أن تشرب الحزن فهربت ونزلت الوادي أسابق الصدى وفجأة أرى أمامي تلة ناعمة من القطن الأبيض فتسلقتها فكانت تحملني كطفل بين ذراعي أمه ووصلت إلى هناك في الأعلى وأنفاسي تسابق بعضها بعضاً فجلست ثم ملت بجسدي عليها فشربت كؤوس السعادة واللذة فغفوت.

أفقت، أفقت وعدت إلى أبعاد المكان والزمان فانحنيت أمامها وقلت ليس الذنب ذنبك بل هي مصيبتي فأنا عليل بداء الخيال وداء مجالسة الجمال.

فاسمحي لي سيدتي أن أقبل عينيك لعلي أعود إلى هناك، أعود إلى هناك حيث الحرية.

واحبيبتاه

الريح اليوم تنوح، تبث الحزن في الأماكن وترسم المأساة على لوح الحياة. اليوم فقدت ابتسامة الشمس ووجه القمر وسحر النجوم، اليوم أضعت حرية النهار وصمت الليل، اليوم بدأت قافلة الدموع تجوب عيني وأيدي الحزن تجتث السعادة من عروقي، اليوم... اليوم....

أأقف أمام قبرك يا حبيبتي؟ لا أصدق لا أريد أن أصدق أنك قد ذهبت وأخذت تلك اللحظات معك. واحبيبتاه! واحبيبتاه! أجيبي أجيبي يا حبيبتي، يا حبيبتي، يا سبب رغبتي في الحياة، يا رفيقة آلامي وأفراحي، يا سراج النور يوقظ الليل في درب أحلامي. أمعقول أنك تركتني؟ أمعقول أني لن أراك؟ أمعقول أني لن أطرب أذني بنقر خطاك؟ أمعقول؟ أمعقول؟... أمعقول؟....

ابكيا، ابكيا ايتها العينان، ابكيا، فوداعاً لوجه شربناه صباحاً ولهمس عذب أشعل النيران في ثنايانا ووداعاً لنظرة أخذتنا إلى الأفق البعيد رهباناً ووداعاً لقبلة تعبد الخد في ثغرها أزماناً...وداعاً...وداعاً...

آه منك أيها القبر! آه منك فأنت تحتضن حبيبتي بين ذراعيك فلا تقسُ عليها أرجوك، لا تقسُ عليها وافسح لها فأنت تحتضن أجمل زهرة في الوجود وأرق سوسنة ولدت من رحم الحرية.

أرجوك أيها القبر...أرجوك....

وأنت يا حبيبتي قد سامحتك لتركي أمام معبد الأحزان لقيطاً بلا أم ولا أب ولا تاريخ فأنت أمي وأنت أبي وأنت التي حروف اسمك كتبت تاريخي.

يا رب أعني على مصيبتي فأنا سأمكث هنا منتظراً قطار الراحة والخلاص حاملاً دموعي وأحزاني سابحاً في بحور الذكريات التي خطتها أنامل حبيبتي.

هراء

حينما رأيتها أول مرة أدركت معنى الحياة ولذة السعادة وبدأت أبني مملكة الحب في قلبي، جدرانها حروف اسمها قمرها يشرب النور من بريق عينيها. وصنعت لها كرسي العرش بيدي لتجلس وتأمر خادمها الذي لا يرى في الدنيا غيرها. وصرت أرقبها كل يوم أجلس ساعات لعل الأقدار تتعطف علي وتجعلها تمر في الدرب الذي صادقت حجارته وأرصفته. كانت تمر من أمامي فأصير بحال لا أستطيع وصفها، قلبي يخفق وأنفاسي تتسارع وجبيني يصب العرق في كؤوس وجنتي، أجهل الكلام وأنسى الحروف.

كانت حين تمر تفرح الأشياء وترقص النسائم وتغرد الزهور، كانت حين تمر تجلب السعادة إلى قلبي.

كان يوماً خريفياً تلامس البرودة زواياه وكعادتي جلست أنتظرها لعلي برؤيتها أشرب الصيف وأرتوي بماء الربيع ولكن الانتظار طال ولم تأت، فقررت أن أعرج في عودتي الخائبة على البقالة لأشتري عصيراً يعالج نزعة العطش التي تجتاحني.

فاشتريت وهممت بالذهاب وإذ بها عند الباب فوقفت بل تجمدت في مكاني وسمعتها تحاور صاحب البقالة، أرجوك يا عم أريد عصيراً من فضلك، ولكن صاحب البقالة اعتذر لها قائلاً: آسف قد نفد العصير وآخر علبة ابتاعها ذلك الشاب منذ قليل.

ذلك الشاب، أنا، أنا ذلك الشاب، أأشرب العصير ومحبوبتي ترغب فيه، لا لا لن يكون، فلملمت حروفي المتناثرة في عجل وقلت لها: تفضلي يا سيدتي هذا العصير هدية مني أرجوك ولا تقولي شيئاً. فسعادتي إن قبلت هديتي فأخذته وقالت شكراً ثم ذهبت.

يا الله! أجمل كلمة «شكراً» سمعتها في حياتي، كلمة ردت عروقاً اشتاقت إلى سماع هذا الصوت الملائكي. وقفلت عائداً إلى بيتي حاملاً «شكراً» وصوراً رسمتها لذكريات ذلك المكان، أحبها كل ذرة في كياني تشدو بكلمة أحبها، كل امرأة سكنت ذكرياتي رحلت وأسكنتها هي...

أحبها.... أحبها... أحبها...

ولكن إلى متى سيبقى هذا القلب مشتعلاً، إلى متى سأبقى أسهر مع الذكريات وكلمة «شكراً»... إلى متى!!!

لا بد أن أكسر حاجز الخوف الذي يسيطر علي وأبوح لها بسري لا بد.

وفي يوم خريفي آخر استجمعت قواي وحبكت كلماتي وانتظرتها في ذلك الطريق، وأتت فخاطبتها:

- أنا: سيدتي هل تسمحين لي بكلمة؟ أرجوك فأنا أنتظر منذ مدة.

- هي: تفضل، لا بأس...

- أنا: أنا إنسان عاش جاهلاً، ولد جاهلاً وعاش اللحظة والخطوة جاهلاً، حتى وجد المدرسة فتعلم فيها لغة واحدة هي كل العلم لغة من حرفين هي لغة الحب.

- هي: لا أفهم ماذا تقول أو ماذا تقصد....

- أنا: هذه المدرسة هي... هي... أنتِ، أنتِ مدرستي، أنتِ التي أحببت، أنتِ التي قدمت رسالة تخرجي في حبها، أنتِ لغتي أنتِ حبي.

- هي: ما هذا الهراء؟ ... ما هذا الهراء؟ ... أتريدني أنا السيدة ابنة كبير التجار أن أحبك أيها الفقير المعدم... فعلاً هذا هراء. – ورحلت –

هراء... هراء... ما أقبحها من كلمة! جلبت لي التعاسة، أحرقت مملكتي، أكل هذا الحب أصبح هراءً. آه، آه، لقد قتلتني، بل ذبحتني، هراء كل تلك الساعات من الانتظار وقصور الأحلام صارت هراء، كل تلك الذكريات التي رسمتها صارت هراء، لم فعلت ذلك؟ لم كنت سعيداً بأحلامي؟ كنت سعيداً بما رسمته بخيالي، كنت سعيداً بك يا مولاتي، كنت سعيداً... كنت سعيداً بهذا الهراء....

فيروز

صوت من الجنة، معزوفة ملائكية، مثال قائم على سحر الشرق، خمرة الزمن الجميل، ملهبة المشاعر قبل أن تكون مذهبة للعقول.

امتزج صوت فيروز بالصباحات العربية قهوة وجريدة وفيروز.

امتزج صوت فيروز بالذكريات فأنطقها فنحن الجيل الوحيد ذو الذكريات الناطقة.

حين أسمع فيروز أفارق جسدي وأسبح في اللاموجود، أرسم الشوارع والبيوت، أتحكم في الزمن أصنع المكان، أكتب المشاهد، أعيش ما أردت أن أعيش، ألمس السعادة بل أراها.

حين أسمع فيروز، تختلط الدموع بالابتسامات، تختلط الدقائق بالساعات، أفقد الإحساس بالوقت، أعيش في دنيا أخرى صنعها صوت فيروز.

شربت عشق صوت فيروز من ثدي أمي ممزوجاً بحليب الطفولة فامتزج بدمي فأنا وصوت فيروز جزء واحد.

ما زلت أذكر تلك الصباحات الجامعية الجميلة في مقهى كليتي العتيق وصوت فيروز يداعب كل ركن فيه معلناً للجميع أن هذا الصوت مكون أساسي لشخصية الجيل القادم.

لدى فيروز ثلاثة: صوت وطفولة وكلمات. صوت ساحر ينام تحت ظل براءة الطفولة وعذوبتها وكلمات تشكل في مجملها قاموس المواطن العربي في البساطة.

فيروز هروب من الواقع وجدلياته وإحداثياته وتعقيداته وجفافه وجسديته إلى الخيال وحريته وبساطته وروحانيته.

فيروز جمال الشتاء ودفء المدفأة الملقاة هناك في طرف الغرفة وذلك الضوء الخافت المتأرجح الذي يداعب الجدران.

فيروز إشراق الصيف وصفاء سمائه وسكون أركانه وتغريد عصافيره.

فيروز متعة وحالة وجدانية فريدة وشاهد على وجودية السحر، فيروز معجزة إلهية إبداعية في فن العشق والجمال تتخطى حدود الكون ساكنة الزمان – الآن وغداً- متحدية حدود المكان وكأنها تمثال جديد حي للحرية، أجل فيروز تمثال الحرية الحي... تمثال الحرية الحي...

خطيئة الأهل

أنا فتاة شرقية شربت الطهر والبراءة منذ صغري، أحلامي صغيرة لم تتجاوز حدود عقلي في يوم من الأيام ولم أبح بها إلا لإحدى صديقاتي التي شاركتني في أحلامها هي أيضاً.

ولدت في بيت بسيط تشع في ثناياه أنوار الدفء والمحبة، لي من الأخوة خمسة والأخوات ثلاث وكنت الوسطى بحسب ترتيب الحياة.

عائلة كبيرة لكنها بسيطة، كان أبي رجلاً قوياً شامخاً كالجبل، ترتجف فرائصي حين أكلمه. كنا فقراء، فأبي لا يقرأ ولا يكتب وكذلك أمي، ولا أذكر يوماً أنا ذهبنا إلى مطعم لنتعشى فيه أو حتى لشراء وجبة جاهزة لتناولها في البيت، وكانت الحجة الدائمة التي تدمغ بها أمي عقولنا أن طعام المنزل أنظف، عدا عن كونه صحياً وليس كطعام المطاعم الذي يشك في نظافته وجودته.

أبي وأمي إنسانان بسيطان قريبان للسذاجة، لم تغير تقلبات الحياة وهمومها من فطرتهما شيئاً وهما لا يباليان بتعقيدات هذا العصر ولا يفكران في المستقبل وبعيدان كل البعد عن أمراض القلق والهم.

وقد أورثانا هذه البساطة وكأنها تجري فينا مجرى الدم فلقد أشربتنا إياها أمي مع حليبها يوم كنا رضعاً ونقشها أبي بتعاليمه وسلوكياته يوم كنا أطفالاً.

وكان لي عم يختلف عن أبي اختلافاً هو أقرب إلى النقيض الكامل فقد كان عمي محامياً مشهوراً، نال من العلم الحظ الوفير فقد كان أصغر إخوته، فتعاونت العائلة على تعليمه وإرساله إلى المدينة ليدرس ويتلقى العلم هناك.

رزق عمي من الأولاد اثنين ومن البنات اثنتين، عائلة مثالية صغيرة مثقفة متعلمة، ربيت على العلم والكتب والفكر وقد كانت زوجة عمي مدرسة للأدب الإنجليزي في الجامعة التي فيها على عمي حينما كانا طالبين في الجامعة.

عائلتان انبثقتا من نبع واحد ولكنهما مختلفتان إختلافاً كلياً نشأةً وثقافةً وحياةً واهتمامات.

أحلام عائلتي بسيطة كما هي أحلامي وقد راود أمي حلم عني منذ كنت صغيرة، حلم كنت أسمعه في اليوم عدة مرات وفي بعض الأيام يكون موضوع الحديث مع أمي طوال اليوم. حلم زرعته أمي في قلبي منذ كنت طفلة حتى نما وأصبح حلم حياتي.

كان حلم أمي تزويجي بابن عمي الذي يكبرني بأربع سنين وقد كان محبوباً في العائلة بأسرها فقد ورث عن أبيه العلم والمعرفة وورث عن أبي نقاء قلبه وصفاء سريرته.

لقد أحببته حباً عظيماً لا أتصور إنساناً أحب مثله فقد تربيت على حبه وعشت هذا الحلم في يقظتي ونومي وكنت أشعر أن الجميع في عائلتي يشعرون بذلك ويرغب فيه حتى أبي، فهو ابن عمي الذي يعتبره أبي ابناً له وليس أخاً من شدة حبه له، فقد كان أبي أباً لعمي بعد وفاة جدي وجدتي بالوباء تاركين عمي طفلاً لم يتجاوز السادسة من عمره.

وتمضي الأيام ونكبر أنا وابن عمي ونصبح شابين ويكبر حبه في قلبي حتى يصبح شغلي الشاغل والخبز اليومي الذي تتغذى به أفكاري وأحلامي.

ويتخرج ابن عمي في الجامعة التي لم أستطع أنا الالتحاق بها ليس لكوني غير مؤهلة أو أن تقاليد العائلة لا تسمح بتدريس البنات، ولكنه الفقر هذا الكابوس الجاثم على أحلامنا.

يعمل ابن عمي مهندساً في إحدى الشركات الكبرى والجميع كانوا فرحين به وخصوصاً أبي وأمي ولم يمنعه عمله ومنصبه الجديد من البر بعمه الفقير وزيارته بين الحين والآخر مما زاد يقين العائلة برغبته في الزواج بي، فبدأت أمي تغذي هذه الحقيقة في وجداني وترسل الرسائل المباشرة وغير المباشرة إلي.

مضى عامان على بدء ابن عمي العمل ولكن لم يحدث شيء ولم يتقدم لخطبتي وأنا أرفض كل من يتقدم لخطبتي انتظاراً له ولكن القلق بدأ يساور العائلة والحزن يتسرب إليها.

وفي يوم نيساني جميل جاء عمي وابن عمي وحدهما –على غير العادة- لزيارة أبي ومحادثته في أمر هام كما صرح بذلك عمي عبر الهاتف لأبي.

لمدة تزيد على الساعة جلسوا يتحدثون ونحن لا ندري ما يجري وأمي تقول: لا تقلقي لا بد أنهما جاءا لخطبتك وهم يتفقون على الترتيبات لا تقلقي...

وخرج عمي وابنه مودعين فرحين قائلين لأبي: إن موعدنا الخميس المقبل لا تنسَ...

وبعد أن غادرا أسرعت أمي سائلة أبي، ماذا يريدان؟ أخبرني؟ لا بد أنهما خطبا ابنتنا! أليس كذلك؟! – وأنا واقفة أسمع وفي خجل.

فرد أبي: لا، لقد جاءا يطلبان مني الذهاب لخطبة إحدى البنات لابن أخي الذي تعرف إليها وأحبها منذ أن كان معاً في الجامعة.

ماذا؟ ماذا؟ وكأن صاعقة من السماء أصابتني، فقدت اتزاني وسقطت مغشياً علي، ولم أصح إلا في اليوم التالي.

أما معقول ما جرى!!! أهذا الحلم الذي عاش معي منذ طفولتي قد تلاشى!!! أكانت تلك الأحلام والأماني أكاذيب وأوهاماً!!! أهناك من أحبك أكثر مني يا حبيبي!!!

لا أحسبني أقدر على العيش بدونك فأنت تجري في روحي مجرى الدم من الجسد، أنت حبيبي، أنت ملكي أنا وحدي...

لا... لا... لا...

آه منك يا أمي!.. آه منك يا أبي!.. لقد ذبحتماني ولم تدريا أو أنكما تدريان... لا فرق لقد ذبحتماني..... ذبحتماني.

لقد ضاع مني حبيبي.... لقد ضاع مني حلمي.

... لقد ضاعت مني حياتي....

لا... لا... لا... لا

ووقفت بالباب

وصلت الطائرة أخيراً إلى هذا البلد وبدأت رحلة غربتي التي ابتدأتها أصلاً في موطني يوم غابت عني محبوبتي وسافرت إلى هذا البلد. لا أدري أيكون هدفي في هذه الغربة هو مستقبلي أم رغبة في استعادة الماضي؟ أتكون كل تلك المعاناة التي سألقاها في غربتي هي لألتقيك مرة ثانية، حقيقة لا أدري...

مضى شهر على وجودي هنا، لم أحس بانقضاء ساعاته وأيامه فأنا في حالة تعرف على الوجود الجديد الذي أعيش فيه، العمل، البيت، الناس، العادات، طريقة الكلام، وغيرها.

مضى شهر ولا تزال هذه الفكرة مزروعة في وجداني، تأبى الرحيل وتظهر في أحلامي في ليال كثيرة. ماذا سأقول لها؟ كيف سيكون لقائي إياها؟ إن عنوانها عندي ما زلت أحفظه منذ أعطتني إياه يوم كنا هناك تحت ظل تلك الشجرة في تلكم الأيام السعيدة. صعب علي هل أسألها لم تركتني هكذا دون مبررات ودون وداع، أكنت تلعبين بعواطفي وقلت في نفسك لا مانع من التسلية خلال سنوات الدراسة وتجربة أشياء لم أعهدها من قبل. هل أعاتبها؟! هل أعاتبها؟! لا أظنني أستطيع. هل أقول لها إني ما زلت أحبها وإن الأيام التي عشتها منذ فراقنا لم تزدني إلا حباً لها.

أأكون أنتقص من كرامتي إن قلت لها ذلك؟! أم أنه لا كرامة في الحب... لا أدري...

ركبت سيارة الأجرة متوجهاً إلى بيتها ولكن في منتصف الطريق خفت، خفت من المجهول قد تكون تزوجت أو قد تطردني ولا تعبأ بحبي فأبدو كمجنون يلحق سراباً، فعدت.

وركبت السيارة مرة ومرة ومرة وكل مرة أعود من منتصف الطريق، حيرتي تقتلني، سألت الكثير من الأصدقاء وبحت لهم بعلتي ولكن لم أجد أحداً يملك الدواء. ومضت سنة كاملة وأنا لا أستطيع اتخاذ القرار.

وذات يوم حلمت وكأنها تدعوني لزيارتها وصحت من نومي ولبست أجمل ما لدي وركبت السيارة وذهبت ووصلت إلى بيتها ووقفت بالباب أحادث نفسي، ها قد وصلت أخيراً، اقرع الباب، لمَ أنت خائف؟ قد تكون نسيتني ونسيت حبنا الذي عشنا نربيه في الجامعة أربع سنين ولكن قد تكون تذكرني وقد تكون نادمة على ما فعلت ولكنها لم تجدني لتعتذر لي لأني هنا ولست هناك، حسناً اقرع الباب، انتظر لحظة، ماذا سأقول لها؟ لمَ أزوروها وماذا أفعل هنا؟ فعادات هذا البلد تستنكر زيارة الصديق لصديقته فكيف بالحبيب لحبيبته، لا عليك فإن الكلام سيخرج للوجود بحسب الموقف، هيا استجمع شجاعتك واطرق الباب.

وطرقت الباب وإذ بالمنادي ذي الصوت الضئيل يقول من بالباب؟

- أنا: أنا جواد يا خالة، ألا تذكرينني؟ زميل ابنتكم في الجامعة.

- الخالة – أم الحبيبة-: جواد، جواد، أحقاً تقول؟!

- أنا: نعم، أنا جواد.

ويفتح الباب....

- الخالة: تفضل يا بني، تفضل، لم نرك منذ زمن بعيد، كيف هي أحوالك؟ وماذا تفعل هنا....

- أنا: الحمد لله، أنا أعمل هنا في إحدى الشركات، كيف حالك؟ وكيف حال زميلتي لمى....

- الخالة – تبكي-: الحمد لله، أنت لم تدر. قالتها باكية؟!

- أنا: أدري ماذا يا خالة؟!

- الخالة – تجهش بالبكاء –

- أنا: لم تبكين يا خالة؟.. لم تبكين؟..

- الخالة: في آخر سنة من الجامعة قبيل التخرج، تعبت لمى فدخلت المستشفى واكتشفنا أنها مريضة بمرض عضال فأكملت دراستها وتخرجت وعادت مباشرة إلى هنا، وبعد شهرين من وصولها إلى هنا، أصيبت بالشلل وظلت طريحة الفراش إلى أن ماتت قبل عام ونصف عام وآخر كلمة نطقتها يا بني هي... جواد.... اسمك.

- أنا – أبكي -: آه منك أيها الزمن! عام كامل وأنا أؤجل هذه اللحظة، لا أدري لماذا، آه منك يا حبيبتي! لقد ظلمتك كثيراً، آه منك، لكي لا تراني كما أنا الآن لم تخبرني، آه منك.... آه لو أن عجلة الزمان تعود نصف ساعة فقط فأقف بالباب وأمنع نفسي من طرق الباب وأعود إلى بيتي وأعود إلى أشواقي وحبي وأحلامي التي ما زالت فيها لمى حبيبتي على قيد الحياة.

آه لو وقفت بالباب ولم أدخل... آه لو....

أحلام المراهقة

لا بد أنك قد مررت بهذه المرحلة – المراهقة - في حياتك وحملت الكثير من الذكريات التي تزورك ربما حين ترى موقفاً من ابنك أو ابنتك حين كنت في مثل سنهما. في كل منا حب توج هذه المرحلة بالسعادة فصبغها بصبغة ديمومة العيش في الذاكرة. كم كانت جميلة تلك التي كانت تسكن بجوارنا، كنت أقضي تحت الشمس ساعات طويلة أرقب رؤيتها، وكم كنت أقضي الليالي تحت نافذة بيتها أسمع أغاني العندليب الأسمر وأم كلثوم وأسمعها أغاني فيروز وفريد.

ما أجملها من أيام! تفكير بسيط صاف، لا تشوبه تعقيدات الحياة، الصناعة الوحيدة التي كنا نتقنها أيما إتقان هي صناعة الأحلام...

كنت أحلم – كما كنت أيضاً- بمحبوبتي نائمة على صدري ويداها نائمتان بين يدي في حديقة خضراء صغيرة، لا ترى فيها سوى اللون الأخضر المرصع بألوان الزهور ولا تسمع فيها غير شدو العصافير وصوت محبوبتي يناديني حبيبي....

أحلام وأحلام... في اليقظة والمنام... ما أجملها من صناعة وما أسعدها من حرفة، وأحسب أن براعة المراهقين في الأحلام هي مقياس مهارتهم في خوض غمار الحياة لاحقاً، فكم عندك رصيد من هذه الأحلام سيكون عوناً وسنداً لك لمجابهة مصاعب الحياة أحزانها.

فأدعوكم أيها المراهقون بلسان إنسان كان مراهقاً، احلموا... احلموا... قدر ما تستطيعون ولسوف تذكرون كلامي وتندمون على كل دقيقة أضعتموها بدون حلم... فاحلموا... احلموا....

صوت أنثـوي

قالت آلو... وسكتت، فارتد الصوت دن مجيب. فقالت: آلو... آلو... هل من أحد؟.. هل من مجيب؟.. آلو.

وفجأة صحوت من سكرتي... فأجبت: أجل... تفضلي...

قالت: هل هذا هاتف أمل؟..

قلت: لا، غير أنه زرع الأمل في حياتي من جديد.

قالت: أنا آسفة، يبدو أني أخطأت الرقم، مع السلامة.

قلت: لا بأس، انتظري –لكنها ذهبت-

ما هذا الصوت؟!...

اخترق المسافة وزلزل كياني... صوت عذب كالماء المتدفق في الغدران... كأنشودة البلابل على أغصان الشجر... صوت ساحر في بلاد العجائب ألقاني... يا لهذا الصوت ما أجمله... يا لهذا الصوت ما أرقه!..

كانت آلهة الحب ترسل كيوبيد بسهام الحب فتقذب بها القلوب واليوم ترسلها عبر خطوط الهاتف فتصيب بها من تشاء غير آبهة للقلوب.

أحداث كثيرة مررت بها خلال حياتي منها العظيم المعقد، ومنها ما ترك أثراً فيّ ومنها مالا أذكره. ولكن لم يخطر ببالي يوماً أن مكالمة خاطئة وصوتاً أنثوياً قد يأخذني إلى مذبح الحب وعلى ضفاف العشق يتركني.

سمعت أن الحب قد يكون من أول نظرة، من أول ابتسامة ولكني ما سمعت أن يكون من أول... آلو...

هذا ما أصابني وقد حاولت سرده في عجالة لعله يسليك ويسليني في انتظاري، فأنا منذ عام ما زلت في انتظار المكالمة الخاطئة مرة أخرى وفي انتظار ذلك الصوت...

ابنة الملك

يحكى أن ملكاً ذاع صيته، كان له ابنة رائعة الجمال تبلغ أعلى المراتب في الحسن والرقة وأراد أبوها الملك أن يزوجها وكان الملك شغوفاً بالأدب فاشرط لمن يستحق الزواج بابنته أن يقدم مهرها قصيدة شعر أو قطعة نثر تعبر عن حب الخاطب وصدق مشاعره فمن كان الأصدق والأنبل في شعره أو نثره استحق الزواج بالأميرة.

وبدأ الشعراء والأدباء يتوافدون إلى القصر متسابقين في وصف حبهم للأميرة وكيف سيجندون كل ما يستطيعون لإسعادها.

وذات يوم جاء شاب فلاح إلى القصر كغيره من الشباب الأدباء والشعراء ووقف أمام الملك ليقدم مهره.

الشاب: يا جلالة الملك أنا لست أديباً ولا شاعراً ولا أتقن فن الأدب والشعر ولكني أتقن فن الحب ولا يستطيع وصف حبي للأميرة أي أدب أو شعر ولا تستطيع أي لغة إنسانية أن تعبر عنه، فأنا ذلك الطفل الذي عشت مع والدي هنا في هذا القصر حين كان أبي يعتني بحديقة القصر وقد شربت حب الأميرة منذ ذاك الزمان وهي كذلك، فقد كنا نلعب ونمرح في حديقة القصر لا نأبه للوقت ولا ندرك معناه.

يامولاي إن الحب الذي يجمعني بابنتك أسمى من الكلمة والحرف فكيف لهما أن يستطيعا وصفه.

وفجأة تنزل الأميرة عن عرشها وتمسك يد الشاب قائلة لوالدها: صدق، ثم يغادران معاً دون أن تبارح عين أحدهما الآخر. فيسرع الحراس لمنعهما وإمساك الشاب.

فيقول الملك: دعوهما، لم أسمع في حياتي أعذب من كلام هذا الشاب لا قصيدة ولا شعراً ولا نثراً. هذا هو الحب الصادق الذي يسمو فوق كل شيء ومن أدركه أدرك السعادة وعاش الحياة حبًا والحب حياة.

مسافة حلم

كم كنت قريبة مني كل تلك السنين، لم أدرك ذلك ولو للحظة.

يظل الإنسان يبحث عن السعادة طوال حياته غير مدرك أن السعادة قد تكون قريبة منه أكثر من أي شيء آخر. أجل كنت قريبة ولم ألحظ ذلك ولم أنتبه غير تلك الليلة، فقد أويت إلى فراشي باكراً منهكاً من مشاغل الحياة الكثيرة فنمت سريعاً وبدأت أحلم... حلمت بأشياء كثيرة...

حلمت بطفولتي وكيف كنت ألعب مع تلك الطفلة بتلك الأرجوحة أمام بيتنا العتيق.

حلمت بشبابي يوم كنت أقضي ساعات كثيرة أتمشى مع تلك الفتاة تحت ظلال الشجر.

حلمت أني أتزوج وأجلس في العرس بجانب زوجتي الرائعة الجمال والكل يغني ويصفق... حلمت كثيراً...كثيراً... ثم أفقت في الصباح... أفقت... أفقت... أفكر بأن هناك شيئاً ما في أحلامي لم أدركه شيئاً ما يجب أن أبحث عنه وإذ بي أراك كما كل يوم أراك، فوجدت ما أبحث عنه، أجل أنت هي، أنت سيدة أحلامي، أنت الطفلة أنت الفتاة أنت زوجتي التي كانت في أحلامي ولا بد أن تكون في واقعي وحياتي.

يا لسخرية الحياة تبحث عن السعادة، تبحث عن الحب ولا تدرك أن هذا الحب قد يكون قريباً جداً لا يبعد عني سوى مسافة حلم.

الانتظار

موعدنا اليوم الساعة الواحدة ظهراً في تلك الحديقة التي شهدت أيام حبنا، تقول لنفسها في كل مرة أجده حاضراً قبلي بنصف ساعة أو حتى ساعة كاملة ولكني اليوم سأسبقه بساعة لأبرهن له أن حبي واشتياقي لا يقلان عن حبه واشتياقه إلي.

ها قد وصلت قبله سأنتظره هناك على كرسينا المعهود، الطقس اليوم جميل، السماء صافية والشمس حنون.

كم أحبك!.. آه لو تدرك كم أحبك... كم هي غامضة هذه الحياة لا تعرف حقيقتها وحقيقة أيامها إلا عندما تفتح أبوابها باباً باباً، ولعمري إن أجمل أبوابها لهو باب الحب، عندما تفتح هذا الباب تختلف الحياة تماماً ورؤيتك إليها تختلف، الألوان لم تكن كذلك قبلاً، الشمس كم صارت جميلة، السماء كم صارت عذبة.

أذكر يوم التقينا أول مرة كان يوماً من أيام الشتاء الماطرة التقينا تحت المطر تبادلنا النظر غير آبهين لأي شيء حتى للمطر، كأن قوة عجيبة جمعت أعيننا، وأحسست أنني أطفو في الجو وأطير لا أرى سوى عينيه وشعرت أني خفيفة، خفيفة، لا وزن لي أو أن الجاذبية قد اختفت وحلت مكانها جاذبية عينيه.

- تنظر في ساعتها-

مرت نصف ساعة، لم يأت، لا بأس بقيت نصف ساعة، ساعة نعم إنها الساعة التي أهداها إلي يوم ميلادي الفائت، كم هي جميلة، ما زلت أذكر يوم قال لي إن هذه الساعة هدية مني حتى عندما أريد أن أراك لا تتأخري علي، فكل دقيقة أنتظرك فيها كجمرة تشتعل سابحة في دمي. ما أجمل الحب!.. ما أروعه!.. إني لسعيدة... العصافير تغرد من حولي عازفة أنشودة الحب الأزلية.

ها قد دقت الساعة الواحدة ولكنه لم يأت، ما به؟، الواحدة وخمس دقائق، بدأ القلق يجتاحني، ما به؟ ما به؟

هناك طفل يقترب ماذا تريد يا صغيري؟

الطفل: أحدهم ترك هذه الرسالة وأعطاني هذه الحلوى مقابل إعطائك إياها.

رسالة لي، ممن؟؟ سأفتحها وأرى، إنها منه، من حبيبي.

-تقرأ الرسالة-

حبيبتي، أحاول منذ ليلة الأمس كتابة هذه الرسالة دون جدوى، لا أستطيع التعبير أو الوصف، لكن بعد جهد قررت أن أخبرك، لم أحب في حياتي غيرك ولن أحب غيرك ولكنك حين تقرئين هذه الرسالة أكون قد غادرت الحياة التي عشتها لأجلك، إلى الحياة التي سأنتظرك فيها فقد قمت بإجراء عملية جراحية صباح اليوم وأخبرت صديقي في حال لم تنجح العملية أن يرسل إليك هذه الرسالة.

فوداعاً ياحبيبتي، أرجوك لا تبكي فإن دموعك عندي غالية وحزنك يزيد من ألمي. وداعاً ياحبيبتي.........

-تجهش بالبكاء-

أنا لا أصدق، إني في كابوس، أجل هذا كابوس، مات حبيبي، آه يا وجعي مات حبيبي.

لقد اسودت الدنيا وانطفأت الشمس واجتاح السواد زرقة السماء - آه ياحبيبي!

ظننت أني سبقتك اليوم وانتظرتك ولكنك دوماً تسبقني حتى اليوم.

انتظرني يا حبيبي... فلا أظنني ماكثة كثيراً بعدك... انتظرني يا حبيبي... انتظرني.

الحلم الأبيض

إنها الفتاة الشرقية، فتاة بسيطة، شفافة كالماء الصافي، عذبة عذوبة الطفل، لا تفقه تعقيدات الحياة وجدلياتها.

حين تبكي تفرغ كل الأحزان التي تسكنها، وحين تفرح تشرب كأس السعادة حتى الثمالة. تحلم بالفرح بالمستقبل بالأمل بالحب.

الحلم الأبيض يراودها كل ليلة، هاهي في غرفة الزينة الكل حولها يمرح ويضحك، أخواتها خالاتها صديقاتها يقترحون عليها كل ما عرفوه من زينة وتبرج فاليوم هو يوم عرسها، هاهي تلبس ثوبها الأبيض ذاك الثوب الجميل الذي افترش الأرض بياضاً كما يفترش الثلج الربى.

إنها تلبسه الآن واقفة أمام المرآة مسترجعة شريط ذكريات أيامها ولياليها التي قضتها في انتطار هذه اللحظة، وتبكي من شدة فرحها تبكي فتعاود أختها إصلاح زينتها.

الباب يطرق إنه والدها الحنون يدعوها إلى المجيء فعريسها بانتظارها لإتمام الزواج.

تنزل الأدراج كأميرة تنزل من برجها العاجي لابسة لون النقاء الأبيض على رأسها تاج من الياسمين تمشي الهوينا إلى عريسها المنتظر بلهفة وشوق.

تتقابل أعين الحبيبين سابحة في دنيا الخيال طائرة بجناحي الحب.

تستيقظ تدرك أنه حلم.... تعود تنام..... تحلم من جديد حلمها الأبيض.

فرنسية الملامح عربية اللغة

اليوم هو بداية إجازتي الصيفية التي سأقضيها في الوطن، ذهبت إلى المطار، أنهيت إجراءات السفر وجلست في صالة الانتظار أنتظر الصعود إلى الطائرة. اشتريت فنجان قهوة وجلست أمام ذلك اللوح الزجاجي أرقب مدرج المطار وأراقب الطائرات في إقلاعها وهبوطها، ما أجمله من منظر وكأني في غابة شغلها الشاغل توديع سرب من الطيور واستقبال آخر.... حلم قديم حلم به أجدادي وأصبح حقيقة الآن، حلم الحرية قد تحقق والرغبة في الانعتاق من أسر المكوث في الأرض والانطلاق نحو السماء التي منها هبطنا في رحلتنا الأولى.

أفكار طرحتها على طاولة مخيلتي، لا أدري...لماذا؟ لكنها راودتني.

وبعد برهة بدأنا بالصعود إلى الطائرة من خلال نفق يصل المطار بالطائرة فتخيلت كأني أمشي في بلعوم طائر لأستقر في معدته.

جلست على الكرسي وربطت حزام الأمان وبدأت الطائرة بالإقلاع ثم طارت.

منحني الله هبة تأمل الأشياء ورؤيتها بمنظور آخر قد يكون ساذجاً في بعض الأحيان وفي بعضها الآخر متعة ليس لها مثيل.

لفتت نظري المضيفة التي شرحت بحركاتها الأنثوية الرقيقة تعليمات السلامة بالطائرة فقد كانت ذات ملامح فرنسية من جمال ورقة وأنوثة خلابة.

كانت شقراء تتدلى خصيلات من شعرها الأشقر على جبينها كأشعة الشمس تغازل جدولاً رقراقاً ينساب بين التلال.

كانت زرقاء العينين زرقة صافية كوجه البحر في أحد نهارات تموز الهادئة.

تمشي وإذ بالنسيم قد رحل عن الأرض وارتحل معنا في السماء يداعب أنفاسنا، كانت صورة للجمال تجوب البلدان ناشرة سحر الجمال الفرنسي في أرجائها.

اقتربت مني- فقد كنت جالساً في أول مقعد بالطائرة- وقالت لي بلكنة مغاربية رقيقة: سيدي، ماذا تحب أن تأكل وتشرب؟ فوجلت فجأة، ثم قلت لها: لقد شبعت وارتويت من جمالك الأخاذ فقد جمعت الجمال الفرنسي واللكنة العربية الرقيقة في مزيج رائع فكأني واقف على شرفة أرى منها التلال والشمس والبحر سامعاً صوت الناي يغازل الأجواء.

احمرت وجنتاها فزادتهما جمالاً وقالت على استحياء: شكراً على هذه الكلمات الرائعة.

فقلت لها: أحسب نفسي أديباً واللغة زادي ولكني أمامك طفل ابتدأ الهجاء.

وصلت الطائرة وحان وقت لقاء الأهل ولكنه قد حان وقت الوداع أيضاً، وداع ذلك الجمال الذي استقر في ذاكرتي فأجرى قلمي خاطاً قصتي معه على هذا الورق.

تلكم الدنيا تحسب اللقاء قد حان فيصير وداعاً وتحسب الوداع قد حان فيصير لقاءً.

حديث حب

كان يوماً ربيعياً من أجمل الأيام العمانية الربيعية، التقيا هناك في تلك الحديقة التي تسكنها الزهور وتغازل الشمس بأشعتها الذهبية غصون الشجر.

التقيا هناك بعد أيام من البعد لظروف توقف الدراسة خلال الإجازة.

قال لها: لم تكن أياماً سهلة بالنسبة إلي ولا أذكر أني نسيتك ولو للحظة كنت حاضرة في وجداني في يقظتي ونومي، سألت نفسي كثيراً ما بك لم كل هذا الاشتياق؟

قالت له: أما أنا فلا أذكر أني نمت فذكراك أرقتني واستلت النعاس من عيني فهما لا تريان غير محياك الذي يجوب الأحداق.

قال لها بدون مقدمات إنشائية وبدون سرقة تعابير الشعراء: أحبك أجل أنا أحبك وأنت؟

قالت له - واحمرار الخجل يطارح وجنتيها – وأنا كذلك.

قال لها: أنا سعيد لم أدرك يوماً معنى السعادة غير هذه اللحظة أنا فرح لا أظن أن الدنيا تتسع لفرحتي أحبك أحبك أحبك.... اشهدي أيتها الزهور اشهدي ايتها الشمس التي أشرقت اليوم على ولادة حب جديد.

قالت له: أنا أريد أن أبكي إن دموعي ترقص من الفرحة وقلبي يختلج بالسعادة.

قال لها - خجلاً- هل تسمحين أن أناديك يا...يا... حبيبتي؟

أجابت: أنت أحق إنسان بها.

قال: يا حبيبتي... يا حبيبتي... ما أجملها من كلمة ما ارقها سأطلب أول طلب منك لنبتدئ معاً رحلة السعادة رحلة الحب قولي لي حبيبي أرجوك.

قالت - بعد برهة خجلاً-: حبيبي.

قال: حبيبتي..... قالت: حبيبي.....

قال: حبيبتي..... قالت: حبيبي.....

تساقط الورق

في غابة من الغابات كان هناك شجرتان إحداهما دائمة الخضرة والأخرى كل سنة تجدد خضرتها.

على تلك الشجرة الدائمة الخضرة كانت لميس ورقة يافعة نبتت على أطراف الشجرة تعانق وجه الشمس وترقص مع الريح كل يوم.

صادقت لميس الورقة ندى من بنات شجرة أخرى متجددة الخضرة فكانتا تعانقان الشمس معاً وترقصان مع الريح معاً.

لميس: أخبريني يا ندى عن أمك الشجرة.

ندى: أمي الشجرة شجرة متجددة الخضرة كل عام وفاكهتها مشهورة في العالم أجمع، جذورها عميقة، أمي الشجرة قديمة قدم الزمن، أسطورة خالدة في الحرية وسجل لتاريخ الوطن. فهناك في الأسفل خط المحبون حروف الحب على جذعها وتحت ذلك الفيء شربوا لذة العشق.

أمي الشجرة أقدم الوجود، خلقها الله لكي تكون حافظة لذاكرة الأيام وما جرى فيها من أحداث.

لميس: يا للروعة! يا للجمال! ما أجمل كلامك ووصفك يا ندى، لقد أريتني الدنيا بمنظار آخر.

وتمضي الأيام والصديقتان تجلسان كل يوم تتحادثان وتلعبان وتمرحان...

ولكن الأيام تمضي والخريف على الأبواب وندى المسكينة بدأت تميل إلى الاصفرار.

لميس: ما بك يا ندى؟ بدأ لونك يتغير أين خضرتك ونضارتك؟

ندى: ألا تذكرين حين قلت لك إن أمي الشجرة شجرة متجددة الخضرة؟

لميس: أجل.

ندى: متجددة الخضرة كلمتان جميلتان تدلان على التجدد والحياة ولكنهما تحملان في ثناياهما رائحة الموت.

لميس: الموت!!!

ندى: أجل الموت،،،، الموت لنا ففي كل خريف نبدأ بالتساقط والموت وترك أمنا الشجرة وحيدة في الشتاء وفي الربيع تنبت أوراق جديدة، هذا يكون كل عام فعمر الواحدة منا لا يتعدى فصل الخريف مطلقاً.

لميس –حائرة-: يا لقسوة الحياة!.. يا لقسوة الحياة!..

وجاءت ساعة الفراق.

ندى: أرجوك يا لميس أن تذكريني ولا تنسي الذكريات التي جميعننا معاً.

لميس –باكية-: لن أنسى... لن أنسى...

ندى: وداعاً يا غالية وداعاً...

وتسقط ندى ورقة صفراء على الأرض مخلفة وراءها لميس حزينة حائرة.

لميس: وداعاً يا رفيقتي لقد عشت أياماً رائعة معك واكتسبت منك الكثير وداعاً...

ويمضي الخريف ويأتي الشتاء ولميس حزينة من قسوة الحياة وقصر عمر لحظات السعادة وتبدأ السماء تمطر.

لميس: ما هذا؟! أنت تبكين أيتها السماء؟ يحق لك البكاء فالفراق صعب.. صعب...

وينقضي الشتاء ويأتي الربيع وتبدأ الشجرة بولادة أوراق جديدة.

وتنبت ورقة جديدة في المكان نفسه الذي عاشت عليه ندى، هذه الورقة هي سمر.

وتعيش لميس وسمر تجربة صداقة جديدة وتمضي سمر كما مضت ندى ويكبر الحزن في قلب لميس أكثر وتأتي أخرى وتومض لحظات الفرح أياماً ثم يأتي الخريف بحزنه.

وفي يوم من أيام الصيف والورقة ليلى تصحو في الصباح.

ليلى: ما بك يا لميس ما الذي أصابك؟

لميس: دودة شقية هجمت علي ليلاً فأكلت مني ما ترين ولم تكمل طعامها وغادرت.

ليلى –تبكي-: مسكينة... مسكينة...

لميس: لا تبكي... لا تبكي... فقد حانت لحظة الخلاص من الحزن العظيم الجاثم فوق قلبي وأراد الله أن تكون نهايتي مثل رفيقاتي فقد انقطع عني الماء وبدأت بالاصفرار كرفيقاتي وسأسقط أخيراً كورقة في الخريف... فوداعاً...

ليلى: وداعاً... وداعاً...

نداء قلبي

هي حمامة بيضاء كالثلج تعيش مع حمامات على سطح بيت من البيوتات العتيقة، كانت تسمى نسرين هكذا أسماها ذلك الشاب العشريني أحمد الذي يقضي نهاره في تربية هذه الحمامات والاعتناء بها.

نسرين حمامة شابة، لوحة فنية رائعة أبدعت يد الخالق في رسمها، نسرين حمامة تقاسم الثلج لونه والنسيم عذوبته ورقته والأفق البعيد نظرته وخياله.

كان يوماً صيفياً يسكنه الهدوء والشمس ترسل قبلاتها الدافئة على جنبات سطح ذلك البيت الزاخر برائحة الحرية وكان حديثاً عابراً سمعته نسرين جرى بين صديقاتها الحمامات.

تقول إحداهن: آه ما أجمل الحب! لعمري إنه فضاء آخر أنعم الله به علينا لكي نطير فيه، الحب جعلني حمامة أخرى بل إنسانة بل كائناً آخر.

ترد أخرى: صدقت، إنه أجمل النعم وأسمى اللذات، إنه السر الكامن وراء جمال الأشياء.

نسرين تحدث نفسها: الحب، ما الحب، إنها المرة الأولى التي أسمع بها عن الحب أهو شراب أم طعام أم نوع من الحَب، أجل لعلهم يقصدون الحَب لا الحُب.

تكمل الحمامات الحديث فتقول إحداهن: لقد أحببت سعيداً هل تذكرنه لقد كان شاباً من أجمل الحمام الذي رأته عيناي، كنت أرى فيه كل شيء جميلاً، كلامه، حركاته، عيونه، منقاره الصغير المدبب، جناحاه، ولعله الحب الذي أضفى عليه في عيني جمالاً فوق جماله.

تقول أخرى: من لم يشرب من كأس الحب لم يذق نعيماً قط، ومن شرب ثم حُرم منه ذاق بؤساً وحزناً لم ير مثلهما قط.

نسرين تناجي ذاتها: وكأني بدأت أفهم ما هو الحب، وأتصور ما ينعم به المحبون، ولكنه تصور ليس إلا فلا بد أن أتذوق هذا النعيم أيضاً وأرشف من رحيقه، ولكن أين أجد ضالتي؟ أين أجد ضالتي؟ أحسها قريبة، ولكن أين؟ لا أدري، فلأدع الأيام تكشف لي عن ضالتي –حبيبي- ولا أحسبه سيكون يوماً بعيداً.

اليوم يوم آخر من الأيام الصيفية الجميلة، وهو يوم زفاف هدباء على منصور صديقي أحمد، واعتاد أحمد أن يصطحب معه إلى هذه الحفلات حمامة من حماماته ليتفاخر بها بين أقرانه وأقربائه، وكان القدر هذه المرة يخط الطريق لنسرين لحضور هذا العرس الجميل والتجربة الجديدة في الحب.

تناجي نسرين نفسها: ما هذا؟ يا للروعة والجمال، هذه العروس الحبيبة تلبس ثوباً أبيض جميلاً وكأنها حمامة أيضاً في صورة إنسان أو إنسان في صورة حمامة، ما هذه النظرات بين الحبيبين التي تشع دفئاً وحناناً وحباً!.

كانت ليلة رائعة عادت فيها نسرين إلى بيتها على ذلك السطح ولكنها عادت نسرين أخرى.

نسرين تقف على حافة سور السطح تتأمل القمر وصراع وتساؤلات كثيرة تعتمل في داخلها: الحب، الحب، أشعر أني أحب، أشعر أني غارقة في الحب، لكني لا أدري من!! إني أحبه، لكن من هو؟! وكأن نفسي تستره عني كي لا أعرف من هو!! لماذا لا أعرف؟! لحظة، انتظر لا بد أن أغوص في أعماقي وأسمع نداء قلبي لكي أجد حبيبي وأعرف من هو، لا بد.

وتغرق نسرين في التفكير ساعة تلو ساعة، تلو ساعة، حتى يطلع الفجر ولكن دون جدوى ونفسها ترفض الاعتراف.

ها هو أحمد قادم كعادته ليجدد الماء والحَب لحماماته وإذ به يرى نسرين على تلك الحافة فيسرع نحوها خائفاً ويمسكها بين ذراعيه ويضعها في العش ظاناً أنه أنقذ حمامته من شر محدق بها.

تخاطب نسرين روحها: نعم هو، أجل هو، عرفته فكلما ذكر الحب أمامي جالت صورته في مخيلتي وكلما نطقت كلمة حبيبي جرى اسمه على لساني إنه حبيبي إنه أحمد....

ولكن كيف!! ولماذا هو؟! لأجل ذلك كانت نفسي تأبى أن تبوح لي باسمه، آه من مصيبتي، انتظرت الحب كثيراً واشتقت إليه وحين وجدته أحببت إنساناً لا يفقه كلامي ولا يدرك حبي، آه من عذابي، قدر لي أن أشقى.....قدر لي أن أشقى....

وتبدأ نسرين معاناة ممزوجة بالفرح والحزن معاً، فهي فرحة بلقاء حبيبها الذي انتظرته طويلاً وحزينة من عدم استطاعتها البوح له بحبها أو حتى الكلام معه.

نسرين تخاطب نفسها: لا بد أن أنسى هذا الحب ولكني لا أستطيع، فحبه يجري في روحي كالدم يجري في عروقي ولكنه الحب المستحيل الذي لا يغادر حدود قلبي.

ولكني لا أستطيع إلا أن أحبه، نعم أحبه وكأني خلقت لأحبه هو، هو وفقط.

وتمضي الأيام والشهور وفي ذات يوم آخر من أيام الشتاء الباردة وخلال حديث عابر ألقت به إحدى الحمامات الجديدة على السرب.

تقول هذه الحمامة: سأروي لكم عن ساحرة أخبرتني عنها أمي، هذه الساحرة تسكن غابة بعيدة في الشمال قرب شلال الماء ويقولون إن هذه الساحرة لها قدرات خارقة في السحر حيث إنها ذات مرة قد سحرت حصاناً فجعلته عصفوراً هكذا يقولون وهكذا حدثتني أمي، ضحكت الحمامات من هذه القصة التي لم يستطع عقل الحمامات استيعابها أو تصديقها ولكن الحمامة نسرين أثارت فيها تساؤلات كثيرة.

نسرين تحاور نفسها: أمعقول أن تكون هذه الساحرة هي السبيل لخلاصي من عذاباتي؟! أمعقول أن الله قد فتح لي باب النعيم لكي ألقى حبيبي؟! أيمكن أن تكون لها القدرة فتسحرني إنسانةً لكي أبوح لحبيبي بحبي فألقاه وأعيش ما بقي لي في هذه الدنيا معه.

سأذهب أجل سأذهب إلى هذه الساحرة لعلي أجد عندها الحل لمعاناتي والشفاء من العذاب الذي يجتاح روحي.

وتطير نسرين إلى الشمال مجابهة الريح والمطر والبرد الشديد باحثة عن الساحرة في الغابات والجبال والوديان.

وتمضي أيام ولكن دون جدوى ولم تجد نسرين أي شيء سوى التعب والبرد والمطر ولكن نسرين تأبى إلا أن تبحث أكثر حتى تجد هذه الساحرة.

وفي إحدى غابات الشمال تجد نسرين كوخاً قديماً تعلوه مدخنة يخرج منها خيط رفيع من الدخان. وقفت نسرين على حافة نافذة الكوخ تنظر لترى من في داخله وإذ بامرأة عجوز تلبس لباساً غريباً وأمامها قدر كبير تحرك ما فيها بمغرفة كبيرة.

تقول نسرين في نفسها: أظن أن هذه هي الساحرة، نعم لا بد أن تكون الساحرة وتدخل نسرين الكوخ من فتحة في النافذة وتتوجه إلى الساحرة سائلة إياها، هل أنت الساحرة؟ هل تفهمين قولي؟ وتلتفت الساحرة نحوها وتقول: أجل أنا الساحرة وأنا بانتظارك منذ مدة وليس عليك أن تقولي شيئاً فأنا أعرف لم أتيت وماذا تريدين ولمَ تريدين ذلك.

وأنا أستطيع أن أحقق لك مطلبك ولكن بشرط واحد إذا وافقت حولتك إلى إنسانة في طرفة عين وستكونين امرأة جميلة جداً.

نسرين: ما هو الشرط؟ أنا موافقة دون الحاجة إلى ذكره.

الساحرة: لا، لا بد أن تعرفيه، الشرط هو إذا لم يحبك حبيبك وأحب أو تزوج أخرى.

نسرين بسخرية: هل ستقتلينني؟

الساحرة: لا بل أقسى من ذلك، سأحول حبيبك وحبيبته إلى شجرة لتبقي تنظرين إليه كي تتعذبي أكثر، ها ها ها، فهل توافقين؟

نسرين: أوافق فأنا متأكدة أنه يحبني كما أنا أحبه فالحب هو حديث الأرواح وليس الأجساد.

الساحرة: كما تريدين.

وفي لحظة عين وإذ بنسرين امرأة ولا أجمل جمعت جمال الحمام وجمال الانسان في كائن واحد.

وتنطلق نسرين شاكرة للساحرة صنيعها مسرعة للقيا حبيبها.

وبعد أيام من الجهد والتعب تصل نسرين إلى بيت الحبيب.

تقول نسرين مستغربة: ما هذه الزينة؟ ماذا يجري؟ فتسأل أحد الجيران الذي أدركته عند الباب فيجيب: إنه عرس أحمد أأنت من المدعوين؟

نسرين: يا ويلتي!.. يا مصيبتي!.. ماذا أفعل الآن؟ إن هذه الساحرة الشريرة كانت تدري بذلك. حبيبي سيصير شجرة وأعود إلى الحب المستحيل من جديد، لا بد أن أنقذه وأخبره بحبي فيتراجع عن فعلته.

وتنطلق نسرين إلى داخل البيت مسرعة ولكن بعد فوات الأوان فها هو حبيبها وزوجته قد أصبحا شجرة تتوسط حديقة البيت.

تناجي نسرين نفسها: إبكي أيتها النجوم إبكي يا قطرات المطر، إبكي أيها البيت على حمامة حمقاء حلمت حلماً فأبت إلا أن يكون واقعاً واذ به يصير كابوساً، إبكي إبكي -وتنهار نسرين حزينة باكية مقهورة من القدر الذي يزيد عذابها يوماً بعد يوم- ماذا أفعل يا إلهي؟ ماذا أفعل؟ ماذا أذنبت يا إلهي حتى أعاقب بهذا؟ ماذا أذنبت؟ أرجوك يا إلهي ساعدني... ساعدني.

وتجلس نسرين أياماً على السطح قرب الحمامات لا أحد يدري من هي وماذا تريد ولكن الجميع يرثي لحالها ويشفق عليها حين يراها ويرى الحزن الذي يتوشح محياها.

نسرين مناجية نفسها: ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟! أنا أنانية... دمرت حياة إنسان بلا ذنب... حاولت تغيير نواميس الكون وتحدي القدر... ماذا فعلت... الساحرة أجل الساحرة هي التي يجب أن تعيد كل شيء كما كان، يا ليت يا ليت فقد اشتقت إلى عذابي القديم.

وتنتفض نسرين منطلقة إلى الشمال ذاهبة إلى الساحرة، فتصل وتقرع الباب وتدخل.

نسرين: لقد خدعتني، لقد دمرتني ودمرت حياة حبيبي، أنت مجبولة بالشر، أنت ابنة إبليس لا جدال.

الساحرة: قد وافقت وبالشرط قبلت فلا تجادليني واخرجي.

نسرين: ليس قبل أن تعيدي كل شيء كما كان أرجوك أتوسل إليك.

الساحرة: لا بأس، أوافق ولكن بشرط جديد.

نسرين: ما هو؟

الساحرة: لن يعيد الحياة إلى حبيبك وزوجته إلا حياة أخرى.

نسرين: ماذا تقصدين؟

الساحرة: على الشجرة التي تحول إليها حبيبك غصن كأنه خنجر اغرسيه في قلبك فتروي دماؤك عروق الشجرة فيعود حبيبك كما كان.

نسرين: ماذا؟! ماذا؟! –تصمت قليلاً مذهولة- أوافق أوافق فإنه حبيبي وهو أغلى عندي من حياتي.

وترجع نسرين إلى البيت وتقف أمام الشجرة تنظر إليها.

نسرين مخاطبة الشجرة: حبيبي أحمد، إعلم أني أحببتك حباً لم يحبه أحد لأحد قبلي واعلم أني في حياتي ومماتي لن أحب غيرك.

وأنا آسف على المحنة التي تعانيها ولكنك حين تدرك مدى حبي لك ستعذرني فوداعاً يا حبيبي وداعاً يا حبيبي......

وتغرس نسرين الغصن في قلبها راوية عروق الشجرة بدمها وإذ بأحمد وعروسه يعودان إنسانين كما كانا.

أحمد: ماذا يجري؟ أحس أني لم أتحرك منذ مدة؟ أين أهلي؟ أين المدعوون إلى العرس؟ ماذا يحدث؟.... هل من مجيب؟... ماذا يحدث؟.. ما هذا؟ ما هذا أيضاً؟..... من قتل حمامتي نسرين؟ من قتلها؟؟؟

من الفاعل؟.............. من الفاعل؟..................

فيها تجد الجمال الذي تراه في كل أنثى.. فقد جمعت الجمال من كل إناث الدنيا فالتهبت... أجل التهبت فأحرقت قلوباً وقتلت كثيراً؛ فهي القاتل الأعظم على هذه الدنيا.. فالذي يراها إمّا مقتول يتوسّد ذراعيها لحداً؛ وإمّا مجنون يمسك القلم محاولاً رسم صورتها بالحروف مثلي....

رأفت دعسان

- مواليد عمان – الاردن ، يعيش ويعمل في السعودية منذ عام 1998 في مجال الادارة وتقنية المعلومات.
- حاصل على درجتي الماجستير والبكالوريوس في تقنية المعلومات
- له عدة منشورات أدبية تم نشرها في عدد من الصحف وكذلك بعض المجلات الادبية الاكترونية.
- صدر له: ترانيم وجدانية، دار الفارابي، 2008.


ISBN 978-9953-71-990-0